عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

— ٤ —

تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن : كان حميد بن المهلب وهو ذاهب إلى البصرة مغتبطاً بما أتى راجياً حمد مغبة سراه ، غير حاسب لما تأتى به الأقدار من إحباط مسعاه حساباً ، فجاءه من الشر مالم يحتسب ، وتقطعت به الأسباب فى كلتين :

ذلك أن الوفد — وفد الأمان — لقى فى طريقه المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ، يريد الشام فارا من يزيد ، فسأل خالداً وعمراً سراً من حميد ، وقال لهما : ما تريدان ؟ فأخبراه بأمان يزيد بن المهلب ، فقال : إن يزيد قد ظهر على البصرة وقتل القتلى وحبس عدياً بن أرطاة أميرها فارجعا .

ما كان من حق خالد وعمرو أن يحيرجعا فى حافرتهما لمجرد ذلك الخبر ، بل كان عليهما أن يبلغا يزيد كتاب الأمان وينتظرا ما يرد به عليهما ، ولكنهما قفلا راجعين ، وأخذا حميداً معهما ، ولم يجد استعطاف حميد لهما ، إذ قال لهما :

« أنشدكما الله أن تخالفا ما بعثتما به ، فان ابن المهلب قابل منكما ، وإن هذا وأهل بيته لنا أعداء ، فلا تسمعا مقالته » فلم يصغيا إليه ورجعا به إلى يزيد . وهنا تبدأ مصيبة آل المهلب .

فى الكوفة : قام عبد الحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة — حين ترامت إليه أخبار يزيد — فأوثق خالد بن يزيد ، وعبد الملك بن زحر ، ولم يكونا فى شىء من أمر يزيد ، ولم يغمسا فى الفتنة يداً ، وبعث بهما إلى الشام فلم يفارقا السجن حتى هلكا فيه .

الجد من يزيد بن عبد الملك : حينئذ شمر يزيد بن عبد الملك عن ساعده ، وأعد جيشاً لملاقاة يزيد بن المهلب بالعراق ، قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل ، قائداه مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وأرسل بالأموال تفرق فى أهل الكوفة .

نرجع بالكلام إلى يزيد بن المهلب بالبصرة ، فقد اتسق له الأمر ونفذت كلمته فيهم ، وفرق عماله فى الأهواز وفارس وكرمان ، وبعث أخاه مدركا إلى خراسان فصرفه من بها من قومه من أزدشنوءة قائلين : « إنك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك ، فان يظهر فانما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقهم بذلك ، وإن تكن الأخرى فانك فى أن تغشينا البلاء راحة » فانصرف عنهم .

جمع يزيد الجنود : لما علم يزيد بن المهلب أن جيوش الشام على قدم المسير إليه والالتقاء به جمع اهل البصرة وخطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ويحثهم على الجهاد ويزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الديلم ، ثم أخذ يشجع جبناءهم ويحفز الناكل منهم ، ويهون عليهم شأن أهل الشام ويحقر مسلمة ويقول من بعض خطبه:

« قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون : جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام ؟ هل هم إلا تسعة أسياف ، سبعة منها لى ، وسيفان على ؟ ومامسلمة إلا جرادة صفراء، أتاكم فى برابره وجرامقته وجراجمه وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط ؛ أو ليسوا بشراً يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ؟ »

المعارضون ليزيد بن المهلب من أهل البصرة : لم يرتفع صوت بمعارضة يزيد بن المهلب سوى صوت الحسن البصرى التابعى الشهير، لا حباً فى بنى أمية، فقد كانوا عنده فسقة ظلمة، ولكنه كان رجلا يكره الفتن ولا يرى من ورائها خيراً، وقد رأى فتنة الجمل وأثرها فى البصرة، وقتل الحسين وما أحدث ، وفتنة ابن الزبير وما جلبت على مكة وأهلها والبيت والمسلمين من الضرر ، ووقعة الحرة وسوء أثرها ، ووقائع الخوارج وما أحدثت من الرعب والخوف فى قلوب المسلمين، فهو يكره هذه الأمور ويرى أن قيام يزيد لم يكن فى باطن الأمر لاحقاق حق ولا لابطال باطل .

روى ابن الأثير أن الحسن البصرى كان يسمع خطبة يزيد فرفع صوته قائلا : لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك ، يريد أننا رأيناك راضياً بسلطان بنى أمية وأنت رعية مسوس، كما رأيناك راضياً به وأنت وال والحال لم تتغير ، فلا ينبغى لك أن تحدث الفتنة لهواك.

أما يزيد بن المهلب فاحتملها للحسن ولم يشأ أن يحدث صدعاً فى صفوف من اجتمعوا له بحاجة الحسن أو إيصال الأذى إليه ، وأما أصحاب الحسن فأشفقوا عليه أن يمسه يزيد بأذى فأخذوا بفمه ثم خرجوا به من المسجد .

كان على باب المسجد النضر بن أنس بن مالك خادم رسول الله ، وكان ممن يحطب فى حبل يزيد بن المهلب يقول : ياعباد الله ! ماذا تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه؟ فوالله ما رأينا ذلك مذ ولوا علينا إلا أيام عمر بن عبد العزيز . فقال الحسن : والنضر أيضاً قد شهد ؟

وقد مر الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد ويقولون : يدعونا إلى سنة العمرين ؟ فلم يطق الحسن البصرى صبراً ، فقال : كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يرسلها إلى بنى مروان يريد رضاهم ، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع

عليها خرقاً ثم قال : إنى خالفتهم فخالفوهم ، فقال هؤلاء نعم ، ثم قال : إنى أدعوهم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع فى رجله قيد ثم يرد إلى محبسه .

انبرى للحسن بعض أصحابه وقالوا له : لكأنك راض عن أهل الشام ، فقال : أنا راض عن أهل الشام ؟ قبحهم الله وبرحهم؛ أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون أهله ثلاثاً؟ قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يحلون الحرائر ذوات الدين لاينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النار بين أحجارها وأستارها؛ عليهم لعنة الله وسوء الدار.

ومن الأمور التى وقعت للحسن البصرى، وكان دائم التنبيط عن يزيد بن المهلب، وكان يزيد قد زحف بالجيوش للقاء جيوش الشام وخلف أخاه مروان بن المهلب والياً على البصرة؛ فبلغ مروان ما يقوله الحسن البصرى .

قام فى الناس فقال: بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى (ولم يسمه) يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه ، وايم الله ليكفن عن ذكرنا وعن جمعه إليه سقاط الأبلة وعلوج فرات البصرة، أو لأنحين عليه مربداً خشناً .

بلغ ذلك من قوله الحسن ، فقال : والله ليكرمنى الله بهوانه ، فقال ناس من أصحابه : والله لو أرادك ثم شئت لمنعناك . فقال لهم : فقد خالفتكم إذ ذاك إلى مانهيتكم عنه ؛ آمركم أن لا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضا دونى ؟

بلغ قول أصحاب الحسن مروان، فاشتد عليهم وطلبهم فتفرقوا وكف عن الحسن.

ونقل ابن خلكان أن الحسن البصرى قال يوماً فى مجلسه: ياعجبا لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين، غبر برهة من دهره، ينهك لله فى هؤلاء كل حرمة، ويركب له فيهم كل معصية، ويأكل ما أكلوا، ويقتل من قتلوا، حتى إذا منعوه لماظة كان يتلمظها ، قال : أنا لله غضبان فاغضبوا ، ونصب قصباً عليها خرق وتبعه رجراجة رعاع هباء، مالهم أفئدة، وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ؛ ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه فى قيد، ثم يوضع حيث وضعه عمر ؛ فقال له رجل : أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد ؟ ـ يعنى بنى أمية ـ فقال : أنا أعذرهم ؟ لا عذرهم الله ـ والله لقد حدث ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنى قد حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة ؛ فدخلها أهل الشام ثلاثاً لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه؛ حتى أن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خمرهن من رءوسهن وخلاخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تحت أرجلهم. أنا أقتل نفسى لفاسقين تنازعا هذا الأمر ؟ والله لوددت أن الأرض أخذتهما خسفاً جميعاً .

فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن هو وبعض بنى عمه إلى حلقته فى المسجد متنكرين

فسلموا عليه ثم خلوا به وصار الناس ينظرون إليهم ، فلاحاه يزيد ، فدخل فى ملاحاتهما ابن عم يزيد ، فقال له الحسن: فما أنت وذاك يابن اللخناء. فاخترط سيفه ليضربه به، فقال يزيد ماتصنع ؟ قال أقتله ، فقال له يزيد: أغمد سيفك، فوالله لو فعلت ذلك لانقلب من معنا علينا .

استشارة يزيد بن المهلب رؤساء جنده : لما تهيأ يزيد بن المهلب للمسير إلى واسط وانتظار جند الشام ، جمع رؤساء جنده وأجال الرأى معهم فيما يفعل .

كان رأى حبيب بن المهلب وغيره أن قالوا: الرأى أن تخرج وتنزل بفارس، فنأخذ بالشعاب والعقاب، وندنو من خراسان، ونطاول أهل الشام، فان أهل الجبال يأتون إليك وفى يدك القلاع والحصون ، فقال يزيد: ليس هذا برأى ، أتريدون أن تجعلونى طائراً على رأس جبل؟ فقال حبيب: إن الرأى الذى كان ينبغى أن يكون أول الأمر قد فات ، قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة، أن توجه خيلا عليها بعض أهلك إلى الكوفة، وإنما بها عبد الحميد مررت به فى سبعين رجلا فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز ، فسبق إليها أهل الشام وأكثر أهلها يرون رأيك، ولأن تلى عليهم أحب إليهم من أن يلى عليهم أهل الشام فلم تطعنى ، وأنا أشير الآن برأى : سرح مع بعض أهلك خيلا كثيرة من خيلك فتأتى الجزيرة ويسيروا إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونهم وتسير فى إثرهم . فاذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعهم جندك بالجزيرة يقبلون إليك فيقيموا عليهم، فيحبسوهم عنك حتى تأتيهم ويأتيك من بالموصل من قومك (أزد الموصل) وينفض إليك أهل العراق وأهل الثغور وتقاتلهم فى أرض رخيصة السعر ، وقد جعلت العراق كله وراء ظهرك . قال: أكره أن أقطع جيشى.

خرج يزيد بن المهلب إلى واسط ، وبعد أن أراح بها مدة خرج عنها وترك ابنه معاوية ومعه بيت المال والأسرى، ويمم بجيشه الكوفة ونزل موضعاً يقال له (العقر) وقدم أخاه عبد الملك نحو الكوفة فى جند ، فالتقى بجيش العباس بن الوليد فاصطدم الجيشان وانتهى الأمر بهزيمة جيش عبد الملك .

قواد الجيوش : كان قواد الجيش عند يزيد بن المهلب:

(١) عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدى : على أهل الكوفة وأهل المدينة .

(٢) أسد بن النعمان بن ابراهيم بن الأشتر: على مذحج وأسد .

(٣) محمد بن اسحق بن الأشعث: على كندة وربيعة .

(٤) حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمى : على تميم وهمدان.

(٥) المفضل بن المهلب: القائد العام للميدان .

وقد علمنا أن جند الشام كانوا جيشين: أحدهما مع مسلمة، والآخر مع العباس بن الوليد .

فأما جيش مسلمة فقواده:

(١) جبلة بن مخرمة الكندى على الميمنة.
(٢) الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابى: على الميسرة .
٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للميدان.
وأما جيش العباس ففيه:
(١) سيف بن هانىء الهمدانى: على الميمنة.
(٢) سويد بن القعقاع التميمى: على الميسرة.
(٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للميدان.
وقد عبى كل أمير جيشه تعبية الحرب.

وقد تراسل يزيد بن المهلب ومسلمة فقال يزيد بن المهلب إنه يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة العمرين، فأظهر له مسلمة فى الرد أنه قابل لكل ما شرط راض به، ولم يكن ذلك من مسلمة إلا دهاء ومكرا حتى إذا استناموا إلى ذلك غدر بهم.

استشارة ابن المهلب أصحابه : استشار يزيد بن المهلب أصحابه فى أنه يريد أن يبيت مسلمة وجيشه بأن يبعث اثنى عشر ألفاً مع أخيه محمد بن المهلب معهم الأكف والبراذع ليلقوها فى الخندق المتحصن به جيش مسلمة ويمده بالرجال حتى إذا أصبح لحق به فى بيضة الجند، وأنه يرجو النصر بهذا التدبير.

وكأنى بالرؤساء والبارزين من الناس فى جيش يزيد قد كانوا على مثل ما كان نظراؤهم فى جيش على بن أبى طالب، ليس لهم تدبير ولا مكر ولا رأى أريب ، فانبرى له السميدع من وجوه أصحابه وقال له: إنا قد دعونا القوم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وأجابونا بأنهم قابلون ذلك منا، فلا ينبغى لنا أن نغدر بهم أو نمكر حتى يردوا علينا ، وقال رؤبة رئيس الطائفة المرجئة وأصحابه ، صدق: هكذا ينبغى.

رد عليهم يزيد قائلا : ويحكم ! أتصدقون بنى أمية؟ إنهم يعملون بكتاب الله وسنة رسوله وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا ؟ إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم إليه ، إنى قد لقيت بنى مروان فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء (يعنى مسلمة) فكان جوابهم: لا نفعل حتى يردوا علينا الذى قالوا .

هكذا غلب يزيد بن المهلب على رأيه وأفسد أصحابه عليه تدبيره ، كما غلب على بن أبى طالب على رأيه يوم رفع المصاحف ؟

(يتلى)

عبد الوهاب النجار